الفلسفة الصغرى للحياة

١ ـ كيف ينبغي أن نعمل؟

للكاتب الفرنسي أندريه موروا

ترجمة الأستاذ صلاح الدين النجار

هذه أولى خمس محاضرات ألقاها ثلاثة شهور خلت ، الكاتب الاجتماعي الكبير « أندريه موروا » بمعهد المجمع العلمي الفرنسي ، جلا فيها على القراء فن العمل ، والتفكير والحب ، والزعامة ؛ وبين في إحدى المحاضرات كيف نمنع سعداء ناعمي البال ، إذا خلا الشباب واشتعل الرأس شيبا

وقد عمدنا هذه المحاضرات إلى العربية لما لاقته من إعجاب ، ولما فيها من آراء ذات شأن (المترجم)

هل علينا من حرج إن ذكرنا ما يقوله المعجم عن « العمل » فناقشناه وبينا النقص الذي فيه ؟ ... فإن حديثنا هذا ربما ملك علينا أمرنا فدفعنا إلى الإفاضة فيه . يقول المعجم : « العمل هو إنفاق جهد متعب لإتمام شيء » . ولكن هذا التعريف ناقص غير وافٍ ، فلم يكون الجهد متعباً ؟ ... لندع للمعجم إلى أربابه ولنضرب الأمثال : هذا صانع جرار يعمد إلى قطعة من صلصال فيسويها شكلاً يريده ويرضاه .. وهذا حارث يشق الأرض ويذللها للزرع ، فلا تلبث أن تهتز وتنبت الخيرات . وهذا كاتب قصصي يخلق كائنات يخلع عليها من عبقريته وخياله جمالاً ، ثم ينضح فيها من روحه سحراً ... مستمداً عناصرها من البيئة التي تحيط به فتملأ سمعه وبصره ، فيأتي بأثر رائع لا يفنيه الحدثان

فالعمل ـ كما أعتقد ـ هو تسليط قليل من التبديل والتحوير على العناصر التي نأخذها عن الطبيعة ؛ مما يجعلها أكثر فائدة وأشد جمالاً . وهو كذلك دراسة القوانين التي يخضع لها ذلك التبديل ، وتبيان حدوده ومداه

ولقد عرّف « باكون » العمل عند ما عرّف الفن ، فهو يقول : الفن هو الطبيعة مضافة إلى الرجل ؛ أي هو ما نأخذه من الطبيعة ، وما نضيف إليه من أشياء ، يظهر فيها أثر تفكيرنا وعبقريتنا . والحق أن كل عمل يجب أن يكون فنًّا

وسأذكر بادىء الأمر القوانين التي لها صلة بكل عمل ، ثم أفصل أحكام عمل الصانع اليدوي ، وعمل المرأة في منزلها ، والطالب في مدرسته ، والفنان في مصنعه ، والكاتب في مكتبه .

* * *

وعلى الرغم من وفرة الأعمال وتعددها ، فإن هناك قوانين تصلح لها كلها . فاختيار العمل الذي تجد في أنفسنا قدرة عليه وحباً له ، هو أول ما يجب أن نفكر فيه . فإن قوة المرء وذكاءه محدودان لا يتسعان إلا إلى مدى . والمرء الذي يريد أن يقوم بكل عمل لا يتقن شيئاً . ألا تنظرون إلى أولئك الذين أوتوا مواهب شتى ؟ يقول أحدهم : لو أني طاوعت الموسيقى لخلقتها . ولو أني عالجت السياسة لسار ذكري واستفاضت شهرتي. فكل عمل هيّن لديّ . إنهم يكونون من هواة الموسيقى لا من فواتها ... ومن المفلسين في التجارة لا الرابحين منها . . . ومن الفاشلين في السياسة لا الناجحين . لقد كان يقول نابليون : إن فن الحرب يوجب أن يكون المرء قوياً كأشد ما تكون القوة ، في مضمار واحد . وأنا أقول إن فن العيش يوجب أن يستهدف المرء في هذه الدنيا أمراً ، فلا يزال يوجه إليه قواه ، ويسخر له مواهبه حتى يظفر به . ولذا كان خطأ أن ندع للأقدار دائماً مصير عملنا في الحياة . فالحياة جهاد ونضال ، ومن لم يعدّ نفسه لها فقد باء بفشل عظيم ... يجب أن يسائل الرجل نفسه فيقول لها:

ترى أي عمل أستطيع أن أكون له كفؤاً ؟ . أنظر إلى ميولك ومواهبك ، ثم فكر طويلاً في نفسك ، وفي أمانيك ؛ فإذا كان لديك ولد ذو بأس شديد وقوّة ، فأرسله إلى الجيش ، ودرّبه على الطيران ، لأنه لا يصلح لأن يكون رئيس ديوان .

فإذا اختار المرء مهنة رضي عنها ... فإنه واجد فيها أموراً لابد من أن يتخذ منها أمراً واحداً ، ترضاه نفسه ، ويقبله هواه . فالكاتب لا يستطيع أن يبدع الأقاصيص أو الروايات كلها ، والسياسي لا يستطيع إدارة الوزارات جميعها . . . والمسافر يعجز عن اجتياز الأرض من شمالها إلى جنوبها . ولابد لنا من أن نكون في بعض الأحايين صمّاً لما تهمس به أهواؤنا في خاطرنا ... فتسيطر على إرادتنا وتدفعنا إلى تنفيذ شيء . فكرّ طويلاً ، وقدّر كثيراً ، فلديك الوقت المتسع ، ولديك التفكير ، وكن كقائد الجند الذي يقضي على كل شغب بكلمة واحدة يلفظ بها أمام جنوده . . . فيستمعون إليه وينفذون أمره . نفذ أمر إرادتك كما ينفّذ الجند أمر قائدهم ، وقل لنفسك : ما عسى أن أصنع في عالم هذا ؟ . أأصلح للامتحان ؟ أأطوف في البلاد . . ؟ أأعمل في مصنع ؟ . . فكرّ طويلاً ، وناقش آراءك نقاشاً هادئاً في زمن محدّد ؛ واجعل لنقاشك نتيجة ترجع إليها ، وتمضي في سبيلها ، فإن التردد قاتل ، والهوى مخيف

فإذا اطمأن الرجل إلى عمله ... فَلْيَتَّئِدْ له ، وليضع خيال ناظريه ما يستهدفه في سيره البعيد وهو واثق بأنه سيبلغ القمة يوماً ، وإن عظم الجهد ، أو طالت الطريق ، لأن أول كل صغير كبير ...

لقد جاء « ليوتي » إلى مراكش ، فوجد بلاداً عاث فيها الساسة ، لا رئيس ولا ذخيرة ولا مال . ولو أن من أتي إليها كان غير « ليوتي » لدب الرعب في قلبه ، وسيطر اليأس على نفسه . ولكنه كان ليوتي العظيم . لقد بدأ بالمدن فجمع كلمتها ، ووحّد صفوفها ، وسخرها لما يشاء بما يشاء . ثم انتقل إلى البادية ، فما زال يؤلف كلمة كل قبيلة ، ويسيطر على كل نزعة ، حتى بلغ ما أراد ... بعد أن جهد طويلاً وتعب كثيراً . إن الحصّاد لا يحصد سنابل القمح ... في الحقل .. بنظرة ، ولكن عوداً بعد عود . وإن مطفئة الثياب لا تنزع الأوساخ عنها بلحظة ، ولكن ثوباً بعد ثوب ...

والعامل الحق لا يهمه شيء ، ولا يعرف الخيبة أو الفشل .. ويعلم أنه سيبلغ ما يريد إذا اختار عمله ، ثم قسمه ، ثم مضى فيه . . . وويل للجبان .. ! يخاف كل عمل ... فلا يعمل . أما الشجاع فهو الذي يستحق الحياة ..!

* * *

وأنا لا أعجب لشيء كعجبي لأولئك الذين يرسلون الشكوى من هذه الحياة وطولها . أنا أسألهم : هل يعيشون ثماني ساعات في اليوم ؟ هل يعملون فيها عملاً حقاً ؟ فإن الكاتب مهما كان هزيل القريحة إذا سوّد كل يوم صفحة واحدة يجد في أيام شيخوخته تراثاً عظيماً يجعله بين النابغين ، كبلزاك وفولتير

ولكن هل يكفي أن نجلس إلى المنضدة ؟ ألا يجب أن نخضع لنظام في عملنا ؟ فلا ندع عملاً قبل أن نفرغ منه ، لأن اللذة بالعمل تتزايد تزايداً هندسياً إذا لم ننقطع عنه ، وهذا الأمر حق عند الكاتب الذي يطلب وقتاً ينسى فيه العالم الخارجي ويتفرغ إلى أفكاره وآرائه ، وهو أيضاً حق عند الصانع أو الرئيس لكي يتقن العمل وينجو من شر المحيط

وخليق بالعامل أن يبتعد عن البيئة الخارجية إذ ابدأ العمل ، لأن هناك طفيليين لا يفهمون عنه ولا يشفقون عليه ، فهم يتكلمون ويثرثرون ، ولا يفكرون في أنهم لو تركوا من يتكلمون معه ، لاستطاع القيام بعمل ذي شأن . فهؤلاء لا يزيدون المرء إلا ضرراً . إنهم يسخرون منه ، ويستهزئون به ثم يدعونه متحسراً على ما فات ضاحكين .

بوركت يا غوته ! لقد أدركت الحقيقة منذ سنين وسنين . لقد قال : « يجب ألا تضيع وقتك مع أناس يأتون إليك دون أن تعلم . إنهم يفيدون منك علماً ثم يدعونك . إن هذه الزورات لا تفيد شيئاً . إنها تفسد عليك آراءك ، وتنقلك إلى عالمك الخارجي الذي هربت منه ، بعد أن اصطفيت منه صوراً جئت لتخلع عليها مسحة من عقلك فتجعلها آية للناس . أنا غني عن أفكارهم فحسبي ما يكفيني » وليحدد طرائق العمل ، فإذا نظر فيما اختطه لنفسه بعد سنوات لقي كل شيء هيناً ، فيثق آنئذ بقدرته ويرضى عن سعيه فلا يتقاعس ، ولا يخلد إلى الراحة والهدوء . على أنه يجب أن نعلم الأشياء التي تطلب عملاً مباشراً كي نقوم بها ثم نتكل على خطتنا

ونسى وراءها بعلء قلوبنا . وليكن قلبك وعقلك متجهين دائماً نحو الهدف . فإذا أصبته يوماً استطعت أن ترجع على خطاك . تتلمس الطريق على هدى وتنظر إلى العقبات التي اعترضتك فتستمد من ذكرى ظفرك بها قوة لعملك القادم وأملاً لعيشك الجديد

إن النوابغ يدأبون بشغف على العمل . فلا يدعونه حتى يفرغوا منه ، ولا يتكبون على عمل آخر قبل أن يتموا الأول ، وتكون عقولهم متجهة نحو طريق واحدة كما يقول المثل الأميركي. وربما كان ذلك باعثاً على الضجر مسبباً للملل ، ولكن ما أهناها ساعة يتغلب المرء فيها على العقبات ، ويصل إلى هدفه ظافراً !

* * *

فإذا اخترت لنفسك عملاً ، فإنك تختاره حسب ما تستطيع أن تقوم به قواك ، وتوصلك إليه مواهبك . ومن الخطل اتباع أمر لا نجح لك فيه . والفشل يشل القوى ويفقد النشاط . كان « غوته » ينصح للشعراء الشباب أن ينظموا قصائد قصاراً عوضاً عن ملحمة واحدة كبرى، لكيلا يفشلوا فيأسوا على مافاتهم. وكان صموئيل بوتلر يقول : « إذا أكلم الضب ، فابدأوا بما ينضج من حبه » وجدير بالمرء في عمل صعب متشابك أن يجزئه إلى أقسام ، ثم يعمد إلى كل قسم فيتمه . فإذا كانت أمامك طريق صعبة طويلة تود أن تسلكها فقسمها إلى مراحل لأن من الصعب أن تمضي فيها وتصل إلى منتهاها في لحظات ، ثم اقطع كل يوم مرحلة . . فلا تلبث إلا قليلاً حتى تجد نفسك في غايتك ، دون أن تلغب نفسك أو تجهد جسمك . كن كالصعد في الجبل الآمل في بلوغ القمة ؛ إنه لا ينظر إليها دائماً لأنه منهمك في الخطوة التي سيخطوها . . . أما القمة فإن بعدها سحيق . . . يخيفه ويشل قواه إذا حدق فيه .. فليمض رويداً .. وعسى بالعامل الدائب أن يصل إلى مبتغاه .

إن تدوين تاريخ لأمة من الأمم منذ أيامها الخاليات إلى أيامها الحاضرات لعمل صعب يخافه الناس ... لأنه يبدو من أعمال الجبابرة الذين سما مقامهم وعظمت قدرتهم . ولكنك إذا قسمته إلى عصور وبحثت في كل عصر فإذا فرغت منه انتقلت إلى آخر غيره ، لم تلبث أن تجد يوماً عملك الضخم بين يديك فتقف متعجباً دهشاً . ثم يثبت القلب بعد التجارب ، وتدب الحماسة في النفس ، ويستولي عليها الاطمئنان ؛ فإن الكاتب الذي ألف كذا وكذا من الكتب لا يصعب عليه إتمام كتاب بدأه . إنه يجسر كما جسر « مارتن دوكارد » و « دوهامل » و « جول رومان » و « لاكروتيل » على وضع عدد عظيم مما لا أستطيع منه صبراً ... »

وقال أيضاً : « إن الذي يتوق إلى الخلود ويود إخراج آيات فنية رائعة لجدير به ألا يدع هواه يسيطر على نفسه »

يقول الطفيليون لك : أين أنت ؟ إننا لا نراك ! تعال غداً لنلهو أو لنصيب طعاماً معاً ...! فقل لهم ولا تحس شيئاً لست بحاجة إلى لهوكم وغذائكم ... فدعوني وحيداً ...

وكان « غوته » لا يجالس أحداً إذا انغمس في الكتابة أو النظم ... فإذا جاء إليه رجل على الرغم من خادمه العجوز أرسل يديه إلى ظهره ولاذ بالصمت وتكلم بحاجبيه وعينيه ، فيمل الزائر منه .. ويدفعه هذا الصمت القاتل إلى الهرب . أما رسائله فكان ينتزع منها ما فيه فائدة وعلم ، ويرمي بالتي يطلب أصحابها منه شيئاً إلى النار ويقول : « ويحكم يا شباب هذا العصر ، إنكم لا تعرفون للوقت ثمناً ... »

يقول نفر من الناس: هذا غرور بالنفس واحتقار للزائرين . فكم رجال عظماء كانوا يجيبون على الرسائل ! وكم طفيليين هم جديرون بالرحمة والعطف . ويتالى هذا النفر ... فيصم غوته بأنه رجل غير إنساني . ولكني أسألهم : هل يستطيع رجل غير إنساني أن يبدع لنا « فوست » الخالدة أو يخلق « وليم مستر » الرائعة ؟ إن من يهمل أمره ... يأكله الناس . . فيمضي دون أن يترك لنا أثراً نفيد منه ... والرجل الذي يحب العمل ، ويجد فيه لذة ومتعة ، ويقبل عليه بشوق وحماسة ... لا يريد إلا رجالاً على شاكلته . هو يساعد الناس ... ولكنه يفر من الحديث السخيف ، والثرثرة المخيفة . ولذا كان « غوته » ينصح أيضاً للأديب أن يهمل حوادث يومه العامة ، إذا لم يكن فيها ما يغذي خياله أو يهيج نفسه . فقلما نكون أغبياء ، عندما نقضي ساعة من يومنا في الاستماع إلى أخبار الحرب القادمة ، وساعة في تتأبعها ... وأخرى في أسبابها ... ولم نتقلد بعد كرسي الوزارة ، أو نحمل عصا القيادة ، أو نمسك بقلم الصحافة ... إننا نسي إلى بلادنا ...